في مصر فلسفة

أصل الوجود

للأستاذ نقولا الحداد

في مقال بهذا العنوان للكاتب الكبير الأستاذ العقاد في العدد (٦٤٧) من الرسالة بتاريخ ٢٦ نوفمبر المنصرم تنويه باسمي الضعيف. هو تنويه بنعت من النعوت الطيبة التي يتصف بها الأستاذ العقاد.

وكانت إشارته لي في معرض الفلسفة الذي استفاض فلسفه فيه وهو يتعجب من أن طلاب الحقيقة لا ينظرون إلى الفلسفة كغاية حيوية «ولا يحجمون عن نعت (الفلسفة القديمة) بالفقر

يأخذون لغتنا، عن السيو (مارسيه) في باريز، كأن باريز بادية البصرة وكأن مارسيه من فصحاء بني عقيل ... أو كأنه الأصمعي أو الخليل!

لا رحم الله ذلك الزمان، ولا أعاد مثله علينا أبداً ...

* * *

أما إن الحديث جد، وإنه ليس بين شبابنا وبين أتباع الإسلام إلا أن يعرفوه، لأنه قوي أخاذ ما عرفه أحد على حقيقته وقدر إن كان منصفاً على مخالفته، ولكن المشكلة هنا: كيف السبيل إلى أن يعرف الشبان المسلمون ما هو الإسلام إذا كانوا لا يستطيعون النظر في كتبه ولا يعرفونها، وإذا كانوا يرون أكثر المتزيين بزي علمائه جامدة أفكارهم، يقولون بألسنتهم ما لا يحققونه بأفعالهم، يأمرون الناس بالعزة ويذلون لأهل الدنيا، وزهدونهم فيها ويتسابقون إليها، ثم إنهم بعد ذلك منقطعون عن الشباب، لا يلقونهم، وإن لقوهم لم يستطيعوا أن يُفهموهم، وكانت المساجد مقفرة من دروس العلم، وكانت المدارس ممنية بكل شيء إلا الدين؟

السبيل هو هذا:

إنها قد نشأت فينا طبقة من العلماء، ممن حصل العلم في المدارس الحديثة ولكنه درس مع ذلك علوم الدين ووقف عليها، أو درس الدين وعلومه على الطريقة القديمة ولكنه ألمّ بالثقافة الحديثة ودرسها كما يدرسها أهلها، وأنا أعرف على هذه الصفة كثيرين في الشام ومصر. وعلى هذه الطبقة يقع الواجب الأكبر في الدعوة إلى الله، والعمل على تعميم الثقافة الإسلامية، بالإلحاح على مديرية الأوقاف وعلى مقام الإفتاء بوضع منهج عملي للتدريس والوعظ في المساجد، وأخذ المدرسين بالشدة ليتفقدوه ويسيروا عليه، والإلحاح على وزارة المعارف بالعناية بالعلوم الإسلامية في المدارس، ومنحها الساعات الكافية لها، وإدخالها في مواد الامتحانات المدرسية والامتحانات العامة واختيار المدرسين الصالحين لتدريسها — ويعمل كلٌّ على ذلك بلسانه إن كان خطيباً، وبقلمه إن كان كاتباً، وبقوته كلها.

فإن لم يفعلوا فليعلموا أنه سيأتي يوم قريب لا يبقى فيه من يدري ما هو الإسلام، ويكون حالنا كحال ذلك الجندي التركي الذي لحق في المعركة بلغارياً، فلما تمكن منه ووضع سنان البندقية على عنقه، قال له: أمان أنا في عرضك. فقال له: أسلم! فوجد البلغاري الفرج، وقال: إني أسلم فماذا أقول؟

فتحير التركي وقال: (بِلْمام والله)!

أي لست أدري!!

(دمشق) **علي الطنطاوي**

الفارغ (كما فعلت أنا) حين جرى البحث في صفحات الرسالة عن وحدة الوجود. فضربت المثل على سخف المذاهب الفلسفية القديمة كقول فيثاغورس: أن العدد هو سر الوجود. وأن النسبة بين الأشياء هي نسبة بين الأعداد. (كيف هذا؟).

يقول الأستاذ: «قال فيثاغورس هذا قبل ٢٥ قرناً. فكان فرضه أقرب إلى الصدق من فروض علمية كثيرة فتن بها الناس إلى سنوات.

«قاله فيثاغورس حين رأى أن الأوصاف كلها تفارق الموجودات من لون أو لمس أو صلابة أو ليونة أو وزن أو ما شابه هذه الأعراض الكثيرة إلا العدد؛ فإنه ملازم بكل موجود فرداً كان أو أكثر من فرد، وكاملا كان أو غير كامل، وأن الفروق بين الأشياء هي فروق بين تركيب وتركيب أو فروق بين نسب الأعداد. وأن الكون كله دور موسيقي هائل يدور على قياس

منسجم كما يدير البازف الماهر ألحان الغناء .

« وإذا قال فيثاغورس هذه المقالة قبل ٢٥ قرناً ، فليس من حقه أن توصف مقالته بالفراغ وهي أملأ من فروض العلماء بعده في معنى الوجود وفوارق الاجسام ، وهي على أضعف الأحوال أدق من قول بعض العلماء أن أصل المادة أثير » .

انتهى بعض كلام الأستاذ ، وقد أوردته هنا بنصه لكيلا يضطر القارىء أن يعود إلى عدد سبق من المجلة .

* * *

ظهر فيثاغورس فيلسوفا منذ ٥٣٢ سنة قبل المسيح وله تعاليم صالحة وبعض نظريات قيمة وأهمها في الرياضيات . فهو أول من اكتشف أن مجموع مربعي ضلعي المثلث القائم الزاوية يساوي مربع وتر المثلث . وهي قضية رياضية عظيمة الشأن ، وقد بنيت عليها نظريات وعمليات رياضية مختلفة وكانت منشأ حساب المثلثات .

ولكن نظريات فيثاغورس في أصل الوجود أو الهيولى أو المادة المحسوسة نظريات سخيفة جداً ذهب إليها بناء على ظاهرات سطحية لا نعلم جيداً كيف استنتجها منها.

أمعن فيثاغورس في الحساب الرياضي وبرع فيه في عصره حتى أن بمدرسته كان قوام مناهجها الحسابات الرياضية . وقد تملكت به حتى اعتقد أن أصل الأشياء العدد . وصار يعلل كل ظاهرة في الوجود بالعدد . تسلط العدد على لبه . حتى صار العدد عنده مبدأ الموجودات .

وكان من مكتشفاته القيمة أنه كشف نسب الأنغام الموسيقية في الوتر المشدود ، وأن هذه النسب تتوقف على طول الوتر ومقدار شده . وكانت هذه النظرية من جملة أسباب اعتقاده أن الأعداد أصل كل شيء ، وأن عناصر الأعداد علة عناصر الأشياء . وأن السماء بما فيها من أجرام هي سلم موسيقي « عددي » . ومن ثم تحول تلاميذه على عدد سبعة في تعليل ظاهرات الوجود لأن عدد ٧ هو عدد أنغام السلم الموسيقي ، وعدد الكواكب المتنقلة ، وعدد السبع الطباق ، السموات السبع ، وعدد أيام الأسبوع الخ .

وجعل فيثاغورس وتلاميذه أهمية للعددين ٣ و٤ ومجموعهما ٧ للاعتبارات التالية :

أولا : أن الخط مجموعة نقط متتابعة . والسطح مجموعة خطوط متحاذية ومنها المربع . والحجم مجموعة سطوح متقاطعة ، ومنها المجسم والمكعب .

وثانيا : أن الوتر والشفع عنده هما المحدود واللامحدود ، وهما يعينان المكان ؟؟؟ والإثنان هما الخط ، والثلاثة هي السطح . والوتر والشفع . والمحدود واللامحدود هما الطاقان الأولان من المتضادات العشرة الأساسية . والثمانية متضادات الباقية هي : واحد وكثير ، ويمين وشمال ، وذكر وأنثى ، وسكون وحركة ، ومستقيم ومنحن ، ونور وظلمة ، وخير وشر ، ومربع ومستطيل .

ويظهر أنه غفل عن وراء وأمام ، وفوق وتحت ، وبرد وحر ، وجبل ووادٍ ، ونوم وصحو ، وضحك وبكاء إلى عشرات الألوف من المتضادات ؛ لأن كل صورة من صور الوجود لها مقابل .

فالكون عند الفيثاغورسيين هو في تحقيق هذه المتضادات ، والواحد هو العقل لأن الواحد لا يتغير ، والإثنان الرأي لأنه غير محدود ولا مقرر . والأربعة هي العدالة لأنها أول عدد مربع هو حاصل متساويين . والخمسة هي الزواج . وإن كنت شاطراً فافهم هذه السخافات .

إذاً سألت فيثاغورس نفسه أن يفسر هذه التخرفات فماذا يقول ؟ وإذا كان فيثاغورس يعتبر فيلسوفا لأجل هذه الفلسفة « العددية » فالفلسفة إذاً بله وهبل .

ألا يرى إنسان اليوم أن هذه النظرية في الطرف الأقصى من السخف لأنه لا يجد لها تفسيراً معقولا ؟ وأما تفسيرها بأن الأوصاف كلها قد تفارق الموجودات من لون وصلابة وليونة وثقل الخ إلا العدد فانه ملازم لكل موجود ، فهذا التفسير إغراق في الغموض لا تفسير ، لأنه يزيدنا حيرة في غير المعقول حين نحاول أن نجعله معقولا ؛ ولا سيما لأن الثقل واللمس وغيرهما كثير من الأوصاف لا تفارق الموجودات .

إذا جردنا المادة من الأوصاف المذكورة وغيرها أي من اللون والصلابة والثقل و و و فاذا يبقى منها ؟ لا يبقى منها شيء لامادة ولا عدد . نحن نعرف المادة بصفاتها وأعراضها التي نحس بها فاذا زالت هذه زالت المادة وزال الوجود .

وأما العدد فليس خاصة من خواص المادة ؛ بل هو خاصة من خواص عقلنا . فنحن نتصرف بالعدد من غير أن يكون لدينا

المعدود . جميع الرياضيات الحسابية إنما هي فكاهة عقلية . ولا تعتبر ذات قيمة إلا حين تطبقها على الوجود المعدود . تكون حينئذ رياضيات تطبيقية .

تجل الأستاذ الكبير عن الجد في قوله : « إن الأجسام نسب بين أعداد ، وإن الفارق بينها فارق في هذه النسب دون غيرها ، وأن التناسق في هذه النسب أصدق من أجرام المادة الملموسة باليدين ، وإن الأصح في تركيب الذرة أن يقال إنه « عددي » لا أنه « مادي » ملموس .

نعم تجلّ الأستاذ عن الجد في هذا القول لانه غير مفهوم وإن فُهم فغير معقول ولا هو منطق .

ويعز على الأستاذ أن توصف مقالة فيثاغورس بالفراغ لأنها في رأيه « أملأ من فروض العلماء بعده في معنى الوجود » وأغرب من هذا قوله : « إنها وهي على أضعف الأحوال أدق من قول بعض العلماء إن أصل المادة الأثير » .

إذا ثبت ، وهو معقول وراجح ، أن الأثير هو أدق جزئيات المادة فيكون العلم قد أبلغنا إلى كنه الهيولى . وأما « العدد » إذا حسبناه أصل الوجود فيطرحنا في هاوية من الجهل لا قرار لها.

إن العلم الحالي قريبنا جداً إلى حقيقة كنه الهيولى التي هي أصل المادة . فقد شرّح الجزيء إلى ذرات ، ثم حلل الذرة إلى كهارب وكهيربات (بروتونات وألكترونات مكهربة) . ثم فتت هذه إلى فوتونات غير مكهربة ، ولكنها حاملة الطاقة . والفوتونات في رأي بعض العلماء الأساطين هي ذريرات أثير .

واختراع القنبلة الذرية حقق النظرية الكهربية (نسبة إلى كهرب) الألكترونية وأكد صحتها . فلا بدع أن تكون الفوتونات هي ذريرات أثير . بنظرية الالكترون هذه فسرنا الألفة الكيمية Affinity ، وكم الكفاءة الكيمية Valance ، وسر النظائر الكيمية Esotaps ، وغير ذلك من الظاهرات الطبيعية التي كان العلم حائراً في تعليلها . فلذلك لم يبق شك في صحة هذه النظرية الألكترونية .

أبعد هذا يصح القول بأن الفلسفة العددية الفيثاغورية أدق من قول العلماء إن أصل المادة الأثير ؟

أين فلسفة فيثاغورس من علم اليوم ؟

كان فيثاغورس وسلفاؤه وخلفاؤه فلاسفة عصرهم المتمادي في القدمية لأن ما أدركوه كان حل ما أتيح لهم تفكيرهم أن يدركوه وأن يفسروه من ظاهرات الوجود وهم ضمن جدرانهم لا يختبرون ولا يمتحنون . ولكن فلسفتهم لدى علم اليوم كالأكمة المنخفضة في البطحاء لدى الجبل الأشم . تحقر علم اليوم إذا قرناه بفلسفة الدهر المظلم .

الحقيقة تظهر عن يد العلم لا عن يد الفلسفة . الفلسفة تتلاشى رويداً أمام العلم ، كما يتلاشى الليل أمام الفجر ، والقمر أمام الشروق .

أجل : في مصر ، والحمد لله ، فلسفة . ولكن ليس فيها ، بكل أسف ، فيلسوف . وأستغرب أن يقبل أحد من علمائنا لقب الفيلسوف . إن الفيلسوف من كانت له نظرية فلسفية جديدة هو مبتكرها . فأين النظرية الفلسفية الجديدة عندنا ؟

أرجو الأستاذ الكبير أن يغتفر ما لا يروق له من مقالي مؤكداً له أني حسن النية . وجل من لا يشط ويغلط .

نقولا الحداد

بادر باقتناء نسختك من :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

وفيه زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً